الشكّ في الشّعر الجاهلي وأثره على مفهوم إعجاز القرآن "قراءة في فكر محمود شاكر"

The theory of doubt in pre-Islamic poetry and its impact on the concept of the Inimitability of the Qur'an

"A Reading in the Thought of Mahmoud Shaker"

ميلود عماره*

جامعة الوادي ، (الجزائر)، miloud-amara@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**: 2023/02/20 **تاريخ النشر**: 2023/03/31

ملخص:

يتناول هذا الموضوع بالدّراسة نظرية حداثية جديدة تنطلق من التشكيك في صحّة الشّعر العربي الجاهلي، وإن كان لها إرهاصات في بعض كتب التُّراث، إذ نال هذا الشّعر قديماً وحديثاً الحظَّ الوافر من القدح والتّضعيف سواءً على مستوى روايتِه أو مَتنه، ولا تقفُ الدّراسة عند هذا الحدّ بل تُعنى بمدى تأثير هذه النظرية على مفهوم إعجاز القرآن الكريم، لأن القرآن نزلَ بلسان عربي مُبين متحدّياً ببيانه وبلاغته العرب الذين ينسب إليهم هذا الشّعر، وقد اعتنى الأستاذ محمود شاكر رحمه الله بهذه القضية عنايةً بالغة لذلك جاءت هذه الدراسة واصفة ومحلّلة لآرائه وتحليلاته في محاولة منه للتقريب بين حركة الطّعن في الشعر الجاهلي وبين إعجاز القرآن.

الكلمات المفتاحية: الشكّ، الشعر الجاهلي، الإعجاز، محمود شاكر.

Abstract:

This study deals with a new modernist theory that stems from questioning the authenticity of pre-Islamic Arab poetry, although it has implications in some heritage books, as this poetry, in the past and in recent times, has received a great deal of slander and weakness, whether at the level of its narration or its text. The study does not stop at this point, but rather It is concerned with the extent of the impact of this theory on the concept of the Inimitability of the Noble Qur'an, because the Qur'an was revealed in a clear Arabic tongue, defying its statement and eloquence to the Arabs to whom this poetry is attributed. Between the movement of the challenge in pre-Islamic poetry and the Inimitability of the Qur'an.

***Key words**: doubt, Pre-Islamic Poetry, Inimitability, Mahmoud shaker.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

قضية عمر الشّعر الجاهلي وأوليَّتُه، وهي قضيَّةٌ متفرّعةٌ عن أوليّة الشّعر نفسه في لسان العرب، ومنها أيضا: قضية شعراء الجاهلية المعروفين وما انتهى إلَينا من أشعارهم ومقدار هذا الشّعر، ومن القضايا المطروحة بقوّة وخاصَّة في هذا الزّمن وعند المستشرقين والحداثيين خُصوصا هي قضية وضع الشعر الجاهلي ونَحْلِه شعراءَ الجاهلية أهي صحيحة أم باطلة؟ كلّ هذه الأسئلة طرحها محمود شاكر في كتاب "قضية الشّعر الجاهلي في كتاب ابن سلام" [1] وأحدثت له في نفسِهِ محنةً علميةً شديدةً مما يوحي بصعوبة الخوض في هذا الموضوع وتفلُّت أزمّة الأدلَّة والشَّواهد.

لذلك يحاول شاكر أن يرسم لنفسه منهجاً ذَوقياً يلُمُّ به شَعثَ القضية، وما انتشر وضاع ونُسي من أسباب الثّقة بصحَّة هذا الشّعر قصد الاهتداء – بعد هذا الزَّمان المتباعد- إلى الاستقرار والاطمئنان إلى صحَّته وثبوته.

وفي هذا الغَرض نفسه وقف محمود شاكر مع مقولةٍ خطيرةٍ ذكرها الجاحظ في كتابه الحيوان؛ هي قول أبي عثمان: ((وأمّا الشّعر فحديث الميلاد صغير السِنّ، أوّل من نهجَ سبيلَه وسَهَّل الطريقَ إليه: امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهلهل بن ربيعة. وكُتب أرسطاطاليس، ومعلِّمه أفلاطون، ثمّ بطليموس، وديمقريطس وفلان وفلان قبل بدء الشّعر بالدُّهور قبل الدّهُور والأحقابِ قبل الأحقابِ...)) [2]

فقد استغرب شاكر هذا المذهب في النّظر الذي تولّى الجاحظ نُصرتَه، وأعلَّه وضعَّفه، ونعتَه بأنه تهجُّم على غيبٍ بلا دليل، إذ كيف لمهلهل وابن أخته أن يستحدثا هذا القدر في البُحور المختلفة الأوزان والقوافي... [3] ولعله بدأ بالجاحظ لاعتباره أقدم ما جاء إلينا متكلماً في هذه القضيَّة؛ صاحب البيان والتبيين، كما يُفهم من نقله وتحليله لكلام الجاحظ؛ أنه بداية للكلام عن قضايا الشّعر ؛ عُمره ومقداره ونَحلُه.

والقضية الأخيرة هي التي يبحث فيها هذا المحتوى العلمي، الذي نسبقه ببيان مفهوم الجهل والجاهلية.

مفهوم الجهل والجاهليَّة: الجَهْل نسبةً إلى الجَاهِل، المشتقّ من الجَهل، ويعدّ هذا المصطلح من مُبتكرات القرآن، إذ حدث بحدوث الإسلام، وذلك للدّلالة على الزّمن الذي كان قبل البعثة [4]، وهو المعنى العُرفي عند علماء العربية، ويقصدون به حال العرب قبل الإسلام تَمييزًا له عن الحالة التي آل إليها العرب بظهور الرسالة الخاتمة؛ رسالة الإسلام وفي هذا يقول الخليل بن أحمد: ((والجاهلية الجهلاء زمان الفترة قبل الإسلام.)) [5]

وقد أكّد هذا المعنى جمعٌ من المفسّرين، فالطّبري في تفسيره لمصطلح "الجاهلية" يرى أنها تدلّ على أهل الشّرك يقول: ((وأمّا قولُه: {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [آل عمران: 154]، إنه يعني أهل الشّرك.)) [6]، كما يرى الطّاهر بن عاشور [7]، أنّ مفهوم الجاهلية ينصرف إلى المدة التي كان عليها العرب قبل الإسلام، لأنّ النّاس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، ويعَضّد ابن عاشور قوله بأنّ الجاهلية نسبة إلى الجاهل الذي لا يَعلم الدّين والتوحيد، على اعتبار أنّ العرب أَطلقت الجهل على ما قابل الحِلم، كقول ابن الرّومي:

بجَهْلٍ كَجهْلِ السّيْفِ والسّيْفُ مُنتَضىً *** وحلْمٍ كحِلْمِ السَّيْفِ والسّيْفُ مُغْمَدُ. [8]

كما أيّد هذا المعنى عددٌ من الدّارسين المعاصرين، كالدّكتور شوقي ضيف إذ نبّه على أنّ كلمة الجاهلية التي أُطلقت على هذا العصر ليست مُشتقةً من الجهل؛ الذي هو ضدّ العلم ونقيضه، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السَّفَه والغَضَب والنّزَق، فهي تُقابل كلمة الإسلام التي تدلُّ على الخُضوع والطاعة لله جلّ وعزّ، وما ينطوي فيها من سلوك خُلقي كريم، وهذا استناداً على ما دارت عليه اللَّفظة من القرآن الكريم، والأحاديث النَّبوية، والشّعر الجاهلي.[9]

أولا: طريق وصول الشّعر الجاهلي:

يقول محمود شاكر: ((...فالشّعر الجاهلي الذي مارس عليه عرب الجاهلية تذوُّقهم قروناً حتى بلغ التذوُّق ما بلغ، تَكمن فيه وفي بيانه هذه الصّفات المُربيَة على ما في سائر الألسنة من الصّفات إرباءً حقيقاً بالتأمُّل والتبيُّن))[10] يريد شاكر أن يُبينَ أن الشّعر هو الذي صقل موهبة التذوّق عند عرب الجاهلية، وأنّ أهمّ هذه الصّفات الفَريدة للغتهم أنَّ لغة العرب زمنَ البعثة قد اكتسبت من المرونَة واللّطف والدّقة والإحكام الفائق؛ مَبلَغاً يُهيئها لحمل هذه الآية الفريدة في آيات النَّبيين، وأنَّ أنبلَ كلامهم وأشرفه هو الشّعر الجاهلي كان قد بلغ أيضا هذه المنزلة ليكون تذوّقهم إيّاه مُعيناً لهم على تذوّق البلاغ الملفوظ الذّي أنزله الله على رجل منهم.

أمّا عن طريق وصول هذا الشّعر الحقيق بالتأمل والتبيّن فهو الرّواية في النّقل: فإذا كان القرآن الكريم وقدسيته أنزل على رسول الله روايةً وبطريقها تلقّاه عنه صحابته والمسلمون بل إنَّه لم يُجمع إلا بعد وفاته صلّى الله عليه وسلم، كما أنّ الحديث النَّبوي لم يُدَوَّن إلا بعد قرن من هجرته "صلّى الله عليه وسلّم" وظلّ في أغلب أحواله يعتمد المشافهة، وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّه كافٍ لبيان أنّ العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتابٍ، أو مُدوَّنة، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزّمن[11]

إذ كانت رواية الشّعر في العصر الجاهلي هي الأداة الكفيلة بنشره وذيوعه، ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشّعر؛ بل قد كان يشركهم في ذلك الاهتمام جميع أفراد القبيلة لأنّه يسجّل مناقب قومهم، وانتصاراتهم في حروبهم ،كما يسجل مثالب أعدائهم، وغيرها، وإلى ذلك أشار بعض "بني بكر" معيّرًا "تغلب" لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي: معلّقة عَمرو بن كلثوم، وكأنّ ليس لها شعرا سواها، يقول:

ألهَى بني تَغْلب عن كلِّ مَكرمَةٍ *** قَصِيدة قَالَها عَمْرو بن كُلثُوم

يَروونَهَا أَبَدًا مُذْ كَانَ أَوَّلُهم *** يَا لَلرِّجال لِشِعْرٍ غَيرِ مَسْئوم[12]

فالعرب قبل الإسلام لم يكن يَشغل بالَهم سوى شعر أجدادهم، فَبِهِ يتمثَّلون ومنْهُ يتعَلَّمون وله يسجُدون، وتعزيزاً لهذا المفهوم يقولُ عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ((كان الشّعرُ علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحّ منه)) [13].

يقول الجاحظ ((فكلّ أمّة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضُّروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها))[14]

وفي هذا يقول ابن قتيبة: ((وللعرب الشّعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيّدا، ولأخبارها ديوانا لا يرثّ على الدّهر، ولا يبيد على مرّ الزّمان،

وحرسه بالوزن، والقوافي، وحسن النّظم، وجودة التخيير- من التدليس والتّغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه، ولم يخفَ له كما يخفى في الكلام المنثور)) .[15]

ويسوق لنا الدكتور شوقي ضيف نماذج[16] من شعرهم الذّي يرويهِ خَلَفُهم عن سَلفِهم بالرّواية لسماعه أو تمثُّل معانيه، هذه النَّماذج تتجلَّى فيها عنايتهم بالرّواية، وأنَّها وسيلةَ انتشاره في القبائل؛ فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها، وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة، ومنها قول المسيَّب بن علَس:

فلأَهْدِيَنَّ مَعَ الرِّيَاحِ قَصِيدَةً *** مني مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقَاعِ

تَرِدُ اِلمِيَاهَ فَمَا تَزَال غَرِيبَةً *** في القوم بين تَمَثُّلٍ وَسَمَاعِ .[17]

فقصيدته تنتشر في القبائل، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها، ويقول "عُميرة بن جُعَل" نادمًا على هجائه لقومه وشيوعه في العرب، وأنه لم تَعُد له حيلة في ردّه:

نَدِمْتُ عَلَى شَتْمِ الْعَشِيرةِ بَعْدَ مَا *** مَضَت وَاسْتَتَبَّتْ لِلرّوَاةِ مَذَاهِبُه

فأصبحتُ لا أَسْطِيع دَفْعًا لِمَا مَضَى ***كَمَا لا يردُّ الدَّرَّ فِي الضَّرْعِ حالبُه[18]

ولما حضرت "الحطيئة" الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: أوص يا أبا مليكة، فقال: ((ويلٌ للشّعر من راوية السُّوء .))[19]

والمقصود بالرّواية فيما سبق هو مجرّد الإنشاد والحفظ، دون الضّبط والتّحقيق، وقد استمرّ هذا المعنى في تاريخ الرواية الأدبية حتى بداية القرن الثاني الهجري. روى ابن عبد البرّ عن محمّد بن المنكدر التّميمي المتوفَّى سنة 130هـ؛ قوله: ((ما كنّا ندعو الرّواية إلا رواية الشّعر، وما كنا نقول هذا يروي أحاديث الحكمة إلا عالم .))[20]

وهذا ما أراد "ابن سلام الجمحي" أن يبلّغه ويقرّره من خلال قوله: ((وفي الشّعر مصنوعٌ مفتعَلٌ موضوع كثير لا خير فيه...وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد -إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه- أن يقبل من صحيفة أو يروي عن صُحُفِيّ .))[21]

ثانيا: العلاقة بين إعجاز القرآن وطبيعة الشّعر الجاهلي:

قد تبدو مسألة المقاربة بين الإعجاز والشّعر ضربا من التكلّف، وهذا على من اعتبر أنّ الإعجاز مقصور على بيان القرآن الكريم، أمّا الشّعر فمن خصائص البيان البشري، لكن في حقيقة الأمر هناك مسائل متشابكة لا يمكن إهمالها لخطرها وعِظَم شَأنها، تتعلّق بالبَيان الذي خصّ الله تعالى به الإنسان.

ولا يمثل البيان بالنّسبة لعرب الجاهلية مجرّد شعر تُروى فيه أخبارهم، وتوثّق أيّامهم فحسب بل هو أكبر من ذلك، ودراسته يجب أن تتمّ بفهم أعمق وأدقّ تتميّز بالقدرة على البيان وتجريد ضروب هذا "البيان" على اختلافها، واستخلاص الخصائص الّتي أتاحت للغتهم أن تكون معدنًا للسموّ، بالإبانة عن جوهر إحساسهم، سموًّا يجعل للكلام حياةً كنفخ الرّوح في الجسد القائم، وكقوّة الإبصار في العين الجامدة، وكسجيّة النّطق في بضعة اللّسان.

لذلك لا بدّ أن نكشف عن مضمونه بما قد يجلّي درس إعجاز القرآن ومفهومه الصحيح ويوجه الأمة العربية إلى تذوق أدبها ودراسة تاريخها، وفي هذا يحقّق الأستاذ "محمود شاكر" حتى بلغ به الأمر أنْ جعل الشّعر الجاهلي نفسه أساس المشكلة في درس الإعجاز، فيقول : ((وإذن فالشّعر الجاهلي هو أساس مشكلة إعجاز القرآن...وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم .))[22]

ويذكر الأستاذ شاكر هذه العلاقة أيضا في معرض تعريفه بكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي فيقول : ((...وأيضا فهي المسألة –يريد إعجاز القرآن -، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية الشّعر الجاهلي.))[23]

ثمَّ يخلص إلى أنّ دراسة الشّعر الجاهلي دراسة عميقة جادّة تفضي بنا لا محالة إلى التماس بيان وخصائص القرآن الذي أعجز أصحاب هذا الشّعر الجاهلي، يقول: ((...وجب أن ندرس هذا الشّعر دراسة متعمّقة، ملتمّسين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها أهل الجاهلية عمن جاء بعدهم، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي أطاقتها قوى لغتهم وألسنتهم، فإذا تمّ لنا ذلك، فمن الممكن القريب يومئذ أن نلتمس أنّ في القرآن الذي أعجزهم بيانه؛ خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر .))[24]

ومن الحقائق التي قطع بوجودها محمود شاكر هي أنّ أهل الجاهلية كانوا أمّة أميّة لم تعتمد حياتها الأدبية على التأليف والتصنيف، بل كان علمهم متمثّلا في "الشّعر" الذّي ضرب أرفع الأمثلة الحيّة للبيان الذي يتذوّقونه حتى بلغوا هذا المبلغ الذي دلّتنا عليه آية النبوّة؛ وهي القرآن العظيم.

1: الشّعر الجاهلي بين أوهام الشكّ ودلائل الثُّبوت:

يدّعى بعض المستشرقين ورواد حركة الشكّ التي تَولّى كبرها الدّكتور طه حسين أنّ الشّعر الجاهلي مُحدَثٌ مصنوعٌ بعد الإسلام، لكن في حقيقة الأمر أنّ هذه شُبهةٌ عاريةٌ من كلّ تحقيق، وتهمةٌ فاقدةٌ لكلّ دليل، فإنَّ هؤلاء المشكّكين لم يبيّنوا في أيّ حقبة من حقب الإسلام وقع هذا الوضع، فإذا كان في زمن الخلفاء المتقدّمين فيكون وضّاع هذا الشعر ورواته قد عاصروا "أبا الأسود الدؤلي" كما عاصروا كثيرا من واضعي النّحو وجامعي اللّغة، من الذين اتَّخذوه حُجّة يستشهدون بها عند التصحيح وأساسا جرّدوا منه أسس النّحو والصّرف واللُّغة كالخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عمرو والفرّاء وغيرهم كثير، ولا يُعقل أنَّهم كانوا في عصر واحد وأن النحاة واللّغويين استشهدوا بشعر وضعه أناس في عصرهم عائشون بين أظهرهم ولم يشعروا بما فعلوه والحال أنّ من عاداتهم أنّهم إذا ارتابوا في بيتٍ نبذوه ومنعوا الاستشهاد به .

وإذا كان الوضع متأخّرا إلى زمن الخلفاء العباسيين مثلاً فلا يعود ممكناً أيّ تأويل لقضية الاستشهاد، أي أنّه شعر صُنع بعد أن استشهد به أيّ أنّه متأخّر عن نفسه، وهذا مُحال (25)

وعليه فإنّ دلائل ثبوته تبقى قائمة، أمّا مجرّد الشّكوك فلا يكفي مداراً للأحكام .

كان الشّعر الجاهلي من جهة الاستدلال لصحّة ثبوته ولا يزال محلّ تحقيق الباحثين، المسلمين وغير المسلمين، ومن أبرزهم الأستاذ محمود شاكر الذي أطال النظر في موضوع الشعر الجاهلي من حيث صحة روايته وثبوته، فعاش خلالها محنة فكرية عصيبة، كما يذكر عن نفسه في غير ما موضع، يقول: ((ودارت بي الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحّة "الشّعر الجاهلي" لا عن طريق روايته وحسب بل من طريق أخرى هي ألصق بأمر "إعجاز القرآن"، فإنّي مَحَّصت ما مّحَّصت من الشّعر الجاهلي حتى وجدته

يحمل هو نفسه أدلّة صحّته وثبوته، إذ تبين فيه قدرة خارقة على (البيان)، وتكشف لي عن روائع كثيرة لا تحد، وإذا هو علمٌ فريدٌ منصوبٌ، لا في أدب العربية وحدَها بل في آداب الأمم قبل الإسلام، وبعد الإسلام، وهذا الانفراد المطلق سِيما انفراده بخصائصه عن كلِّ شعرٍ بعدَهُ من شعر العرب أنفسِهم، هو وحده دليلٌ كافٍ على صحّته وثبوته .))[26]

أقول: وهذا الاستدلال ضربٌ من الاقتدار تفجَّر من باطن النَّفس المتذوّقة التي نماها محمود شاكر بملامح منهجه في التذوّق، ولا تكاد تجده في بطون الكُتب المقروءة فقد عقد هذه المقاربة بين الشّعر الجاهلي وإعجاز القرآن واهتدى إلى أن كلاهما ينفرد بخصوصية في البيان عن بني جنسه؛ أولاهما فيما تطيقُه القوى والأخرى فيما لا تُطيقُه القوى، وكلاهما يحمل بنفسه أدلّة صحَّته وثبوته، فلا يُحفظ درس الإعجاز إذا لم يُحفظ درس الشعر الجاهلي.

2: دليل أهلية المتحدَّى:

أنطق الله سبحانه وتعالى العربَ بالبيان الذى جعلَه صفةً لكلامه في تنزيله ثُمَّ تحدّاهم قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجَزوا عنه وانقطعَت قُوَاهم دونه.

وقد كان قومه قريش خاصَّة موصوفين برزانة الأَحلام، ووفارة العُقول والألباب. وقد كان فيهم الخُطباء المصاقع والشُّعراء المفَلّقون. وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجَدل واللّدد، فقال سبحانه: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمون} وقال سبحانه: {وتُنذِرَ بِه قوما لُدًّا}. [27]

ويضاف إلى قدرتهم على البيان أنّهم أشدّ النّاس حرصا ورغبة على إقامة حجة يكذبون بها القرآن، وإرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته، لذلك سعوا في آيات الله معاجزين، لكنهم لم يأتوا بسورة من مثله، وهذا هو عينُ العَجز، لأنّ الإرادة الجازمة لا يتخلّف عنها الفعل مع القدرة .[28]

وإنّ الجيل الذي نزل عليه القرآن بلغ حينئذ ذروة كمال البيان البشري، بلغ في أمرين في "البيان" وهو القُدرة على الإبانة وفي "التبيُّن" وهو القدرة على التَّمييز، ويقصد بالتَّمييز هو الكشف عن طبقات الكلام وتحسُّس أرواح الشّعراء من كلامهم، فالله تعالى وهبهم القُدرة على شيئين: القدرة على الكلام و على المتكلم به، فالأوّل في اقتدارهم على الإفصاح والإبلاغ والآخر في تمييزهم بين كلام وكلام .

مما قد يثيره المنكر للشّعر الجاهلي إضافةً إلى شبهة صناعة هذا الشّعر واختلاقه بعد الإسلام، هو رفع الأهلية البيانية عند العرب أو عن بعضهم، وبالتالي تجريدهم من القدرة على التمييز بين كلام الله تعالى وكلامهم.

ومن المعلوم أنّ القرآن طالب العربَ أن يميّزوا ويُقِرُّوا بأنّ هذا الكلام العربي المنزّل عليهم مفارق لكلام البشر- وإن كان جارياً على أسلوبهم-، ومن البيّن أنَّ الله جلَّ جلاله لم يطالبهم بهذا التميّز إلا وهم قادرون عليه، بل هم أقدر النّاس عليه.

لذلك في قوله سبحانه: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} رتّبت الفاء في قوله "فاعْلَمُوا" اليقين القاطع بأن المنزل من عند الله، والإقرار بأنه كلامه تعالى؛ على عدم استجابة هذا الجيل.

وفي هذا يقول محمود شاكر: ((فمحالٌ أن يَفجأ الله عباده من عرب الجاهليّة بهذا التَبَيُّن الذي طالبهم به وهم خِلوٌ من القدرةِ عليه، فكانَ لزاماً أن تكون لهم قدرةٌ يعلمها الله سبحانه فيهم وإن جهلوها هم من أنفسهم من قبل أن يطالَبوا بهذا التَبيُّن، وإلا يكن ذلك كذلك كانت المطالبة تعجيزاً محضاً لعباده...وبديهة العقل تقتضي بأنّه محالٌ أن تكون هذه القدرة جِبلَّة فُطر العرب عليها بلا إرادةٍ منهم ولا عملٍ، وإذن فهي قدرةٌ مكتسَبةٌ بإرادةٍ وعملٍ)) [29]

ودليلُ أنَّهم قادرون على هذا التَميُّز، أنّ الله تعالى فَوَّضَ إليهم الحُكم على القرآن، ولم ينصب لهم حَكَمًا يحتكمون إليه في الموازنة بين كلامه تعالى وكلامهم المعارض للقرآن .

يقول محمود شاكر: ((وإذن فالأمر في الحالين في طلب إقرارهم بأنَّ هذا القرآن المنزل مباين بنظمه وبيانه لكلام البشر وفي الحكم المفوض إليهم في التمييز بين القرآن وبين ما عسى أن يعارض به المعارضون استجابة للتحدي؛ كلاهما دالّ على أنّ المخاطبين بالقرآن كانوا يملكون قدراً لا يمكن تحديده من القُدرة على تذوّق البيان والنَّظم تُتيح لهم الفصل الواضح بين الذّي هو كلام البشر والذّي هو مُباينٌ لكلام البشر.))[30]

3: وظيفة الشّعر الجاهلي بين شَواهد التَّفسير وقضايا الإعجاز البياني

بيّن محمود شاكر في كتابه "مداخل إعجاز القرآن" الوظيفة الفعلية للشعر الجاهلي بين درسين مهمّين هما تفسير القرآن وإعجاز القرآن، وهو بسبيل التفريق بين الشّعر الجاهلي كشاهد لتفسير القرآن والشعر الجاهلي كدليل على إعجاز القرآن الكريم:

فيرى محمود شاكر-رحمه الله تعالى- أنّ كلّ ((...ما عند القُدماء من ذكر الشّعر الجاهلي في تفسيرهم، فهو أنَّهم يستدلُّون به على معنى حرفٍ في القرآن، أو بيان خاصَّة من خصائص التعبير العربي كالتَّقديم والتأخير والحذف وما إلى ذلك، وهذا أمرٌ يَصلُح له شعر الجاهلية، كما يَصلُح له شعر الإسلام وغاية تفسير القرآن – كما ينبغي أن نعلم -،إنَّما هي بيان معاني ألفاظه مفردةً وجُمَلِهِ مجتمعةً، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المعاني، سواء في ذلك آيات الخَبر والقّصص وآيات الأدب وآيات الأحكام، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن وهو أمرٌ عن "إعجاز القرآن" بمعزل.

أمّا الأمر المرتبط بالشّعر الجاهلي، أو بقضايا الشّعر جميعا، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية، وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن، فهو علم إعجاز القرآن ثمَّ علم البلاغة .))[31]

بل يذهب الأستاذ شاكر إلى أبعد من ذلك في التمييز بين توظيف الشّعر الجاهلي، بأنه كان كنزا لعلوم العرب جميعا، يحتاج كلّ علم من هذا الشّعر نصيبا على قدره، ولكن غاب أو غُيِّب عن الدارسين أعظم ما بقي لهذا الشعر في تقدير الأستاذ شاكر، وهو جعله أي الشعر الجاهلي مادة لدراسة البيان المفطور في طبائع البشر، ثم مقارنته ببيان القرآن حتى يصل الدارس بذلك إلى الإقرار بأنّ بيان القرآن من غير جنس بيان البشر ألبتَّه، فيقول الأستاذ شاكر مُبيّنا هذه القضية الخطيرة المهمّة: ((...بقي – أي الشعر العربي – للغة العرب، وشاهدا على حرف من العربية، وعلى باب من النحو، وعلى نكتة في البلاغة، وبقي ذخرا للرواة ورِكازا يستمد منه شعراء الإسلام، ومنبعا لتاريخ العرب في الجاهلية، بل بقي كنزا لعلوم العرب جميعا، لكل علم منه نصيب على قدره .ولكن غاب عنّا أعظم ما بقي لهذا الشعر :أن يكون مادة لدراسة البيان المفطور

في طبائع البشر، مقارِنا بهذا البيان الذي فات طاقة بلغاء الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة تجعل كل مقتدر بليغ مبين، وكلّ متذوّق للبلاغة والبيان، لا يملك إلا الإقرار له، بأنَّه من غير جنس ما يعده سمعه وذوقه، وأنّ مبلغه إلى النَّاس نبي مرسل، وأنَّه لا يطيق أن يخْتَلِقَه أو يفتريه، لأنَّه بشرٌ لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثله في طوقِ البشر، وأنَّه إن تقوَّل غير ما أُمر بتبليغه وتلاوته؛ بانَ للبشر كَذبه، وحقَّ عليه قول منزله من السَّماء سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) }[32]

ثالثا: أثر الطَّعن في الشّعر الجاهلي على مفهوم إعجاز القُرآن الكَريم:

كانت بديهة الأستاذ شاكر يقِظة متفطّنة في قضايا الشّعر الجاهلي خاصّةً تبحثُ عن سر تكالب الأعداء على الشّعر الجاهلي خصوصاً الذي صُبّ عليه بلاء كثير ((آخرها وأبلَغُها فساداً وإفْساداً، ذلك المنهج الذي ابتَدَعَه مرجليوث لِيَنسِف الثّقة به، فيزعم أنّه شعرٌ مشكوك في روايته، وأنّه موضوع بعد الإسلام، وهذا المكر الخفيّ الذي مكره مرجليوث وشيعته وكهنته... كان يطوي تحت أدلّته ومناهجه وحججه إدراكاً بمنزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن، لا إدراكاً صحيحاً مُستبيناً، بل إدراكاً خفيّاً مُبهماً تُخالطه ضغينةً مستكنة للعرب وللإسلام))[33]

فما منزلة الشّعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن الكريم؟

لنجيب على هذا السُّؤال لا بدّ أن ننطلق من القرآن الكريم وإعجازه محاولين التقرب إلى أدلة صحتهما، وإذا كان من الثّوابت التي لا مِريةّ فيها أنّ القرآن الكريم هو الدّليل على صحَّة نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلَّم، وليس العكس، وجب أن يكون القرآن الكريم دليلاً على نفسه إذ يحمل هو نفسه دلائل صحَّته وبرهان كونه من عند الله تعالى، فكيفَ يكون القرآن دليلاً على نفسه؟

يكون القرآن دليلا على نفسه من طريق الإعجاز الذي اتَّصف به القرآن الكريم دون غيره من الكتب السَّماوية السَّابقة، وثبوت صفة الإعجاز للقرآن الكريم تتوقَّف على أن يُسبق بمرحلةٍ تستوجبِ كونَه معجِزاً، وهي التحدِّي؛ فلا يمكن عقلاً وجود طرف ثبت إعجازه لخصمه إلا إذا وقع بينهما تحدٍّ في مسألة ما، وهذا ضروري في كلّ معاجزة بي طرفين.

فإذا ثبتث ضرورة وجود التحدّي فإن هذا التحدّي يستلزم مُتحَدَّى، ولا مناص من وجود طائفة إمَّا أن تستجيب لمضمون التحدّي أو لا تستجيب.

لكن الشّرط الأساس في استجابتهم من عدمها أن يكونوا أهلاً للتحدِّي مُتّصفين بالكفاءة في ما تُحدّوا فيه، لذلكَ اختار الله تعالى العربَ دون غيرهم لِيُقيم عليهم الحُجَّة فيما هم بارعون فيه وهو البلاغة والبيان، فالعربُ وحدَهم أهلُ فصاحةٍ وبيانٍ.

هذه الكفاءَة التي بُني عليها دليل القرآن ودليل صحة النبوّة هي محلُّ نظر عند المستشرقين ومن والاهم من دارسي الأدب العربي، لأنّ حسم هذه القضية لابدّ لها من دليل يؤيّدها وشاهد يدعمها، ولهم أن يتساءلوا: ما دليلكم على فصاحة العرب واقتصار ذلك عليهم؟

ولا دليل بين أيدينا يشهد على ذلك إلا هذا الشّعر الجاهلي؛ ديوان العرب الذي عهدناه عنهم.

فطمس معالم الشّعر الجاهلي والتشكيك فيه يؤُول إلى طمس بلاغة العرب والتشكيك فيها ،وسقوط شاهد إثبات بلاغة العرب يؤول إلى نزع أهلية التحدّي عنهم، إذ إنّ تحدي من لا يعرف البلاغةَ بالبلاغةِ لا معنى له . وبزوال الدَّليل على الإعجاز لا يمكن إثبات إعجاز القرآن .

إذن لا دليل على نُبوَّة محمّد صلّى الله عليه وسلَّم، وهو بيت القصيد، وهو ما أراده الطَّاعنون من الحداثيين والمستشرقين.

ويلخص لنا "محمود شاكر" مضمون ما قرَّر آنفاً فيقول: فإنّ النّظر المجرّد والمنطق المتساوق والتمحيص المتتابع كلّ ذلك قد أفضى بنا إلى تجريد معنى إعجاز القرآن، مما شابَهُ وعَلِقَ به حتى خَلُص لنا أنَّه من قبل النَّظم والبيان، ثمَّ ساقنا الاستدلال إلى تحديد صفَة القوم الذين تحدّاهم وصفة لغتهم، ثم خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم، ثم التمسنا الشّاهد والدّليل على الذي أدَّانا إلى النّظر، فإذا هو: "الشّعر الجاهلي".

ولعلَّ في هذا خير بيان لمنزلة الشعر الجاهلي من إعجاز القرآن وهو سرّ الطّعن والتشكيك فيه دون غيره من شعر العرب، فلا دليل على كفاءة العرب الذّين تحدّاهم القرآن ببيانه وبلاغته إلا هذا الشّعر، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى حتى يبقى شاهداً ودليلاً على ما وصل إليه البيان الإنساني لكنه مع ما وصل إليه عجز عن مسامات البلاغ الملفوظ الذي أُنزل على محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

خاتمة:

في آخر هذا البحث نقدّم جملة من النتائج التي توصل إليها، نجملها في الآتي:

1- يمثّلُ الشّعر الجاهلي مُستودعَ علوم العرب، حرسَه الله بالوزن والقَوافي لا يرثّ ولا يبيد، لذلك تمَّ نقله للقبائل عن طريق الرّواية كما نُقل القرآن والحديث النَّبوي.

2- نظرية الشكّ في الشعر الجاهلي واحدةٌ من المحن التي صُبّت عليه، وما ذاك إلا إدراكاً من مرجليوث وأشباهه من الحداثيين لمنزلة الشّعر الجاهلي في شأن الإعجاز.

3- اتّضحت من خلال البحث منزلةُ الشّعر الجاهلي في شأن الإعجاز، وأنَّه الشّاهد والدّليل عليه، اتّضاحاً يبعثُ في فكر الدَّراسين في المباحث القرآنية أنَّ أغلب القضايا التي لحقتها مناهج الشكّ الحداثية تريد النّيل منها والطَّعن فيها والتشكيك في ثوابت أمّة الإسلام، وإن بدأ ميدانها في الظَّاهر بعيداً.

هوامش وإحالات المقال

([1]) . ينظر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، مطبعة المدني، القاهرة، ص10.

([2]) . الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ، ج1، ص52.

([3]) . ينظر: قضية الشّعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، مطبعة المدني، القاهرة، ص12-13.

([4]) . ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ- 1998م، ج1، ص240.

([5]) . العين، ت: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، ج3، ص390.

([6]) . جامع البيان، ج7، ص321.

([7]) . التحرير والتنوير، ج4، ص136.

([8]) . ينظر البيت في الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1419هـ، ص424.

([9]) . ينظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف، ص39.

([10]) . قضية الشعر الجاهلي، ص118.

([11]) . ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص141.

([12]) . ينظر: الأغاني، الأصفهاني، ت: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، ج11، ص57.

([13]) . خزانة الأدب، البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ، ج4، ص414.

([14]) . الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ، ج1، ص51.

([15]) . تأويل مشكل القرآن، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص20.

([16]) . تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص142.

([17]) . المفضليات، الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص62.

([18]) . ينظر: الشعر والشعراء، ابن قيبة، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج2، ص636.

([19]) . خزانة الأدب، البغدادي، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ- 1997م، ج2، ص411. وينظر: الأمثال، القاسم بن سلام، ت: عبد المجيد قطاش، دار المأمون، ط1، 1400هـ-1980م، ص226، والشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، ج1، ص311.

([20]) . جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ، ت: أبو الأشبال الزّهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1414هـ- 1994م ج2، ص818.

([21]) . طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ت: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، ص4.

([22]) . مداخل إعجاز القرآن، ص167.

([23]) . المرجع نفسه، 168.

([24]) . نفسه، ص170.

([25]) . ينظر: الشّعر الجاهلي أمنحولٌ أم صحيحُ النّسبة، الأمير شكيب أرسلان، تحقيق: محمد العبدة، دار الثقافة، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م، ص54-56.

([26]) . الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تقديم: محمود محمد شاكر، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ-2000م، ص35.

([27]) . بيان إعجاز القرآن، الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م، ص22.

([28]) . ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425هـ، ص221.

([29]) . قضية الشعر الجاهلي، ص111.

([30]) . قضية الشعر الجاهلي، ص94-95.

([31]) . مداخل إعجاز القرآن، ص152.

([32]) . المرجع نفسه، ص159.

([33]) . نفسه، ص167.

قائمة للمصادر والمراجع:

1. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2.
2. بيان إعجاز القرآن، الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م.
3. تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، دط.
4. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،
5. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1414هـ- 1994م.
6. الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ،
7. خزانة الأدب، البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ- 1997م.
8. الشّعر الجاهلي أمنحولٌ أم صحيح النّسبة، الأمير شكيب أرسلان، تحقيق: محمد العبدة، دار الثقافة، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م.
9. الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1406هـ-
10. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة .
11. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تقديم: محمود محمد شاكر، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ-2000م.
12. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال .
13. قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1997م .
14. مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط1، 1423هـ-2002م